مذكرات طبيب شرعى

«ليلة فى غرفة الأحراز»

«قصص قصيرة من واقع حياة طبيب شرعى»

د. سيد القط

مذكرات طبيب شرعى

«ليلة في غرفة الأحراز»

«قصص قصيرة من واقع حياة طبيب شرعى»

د . سيد القط

مقدمة

سألني زميل جديد يبدو وعليه الحماس للعمل في مجال الطب الشرعي : هل أصلح طبيبا شرعيا ؟
أثار هذا السؤال البسيط الذاكرة ... واندفعت الى السطح قضايا ومشكلات ومتاعب مررت بها أثناء عملي كطبيب شرعي ...
ووجدتني أبحث بين كل هذا عن صلب المشكلة وعن المفتاح السحري الذى بدونه تنغلق أبواب الطب الشرعي وتوصد فلا تفتح أبدا حتى لمن يعمل به عابرا كالمسافر في مطار دولة غريبة .
ليست المشكلة الأساسية بالطبع في الدخل المادى ، فالتوازن على الاقل في الفترة الاولى من عمل الطبيب في المدن - يميل لصالح الطب الشرعي ... فمصاريف افتتاح العيادة وتجهيزها والصبر على ضآلة دخلها سنوات تطول أو تقصر ليس في مقدور كل طبيب ... وفي المقابل فان التصاعد المستمر - حتى الان - في اتعاب القضايا المدنية ومكافآت التشريح والحوافز والجهود والبدلات قد أضاف ثقلا جديدا إلى كفة الطب الشرعي . ناهيك عن الترقيات حيث يوجد حاليا بين كل طبيبين - يعملان بالمصلحة - وكيل وزارة .
كما وأن المشكلة الاساسية ليست في الارهاق البدني ... فكثير من التخصصات الطبية يرهقها العمل اكثر مما يحدث للطبيب الشرعي ، كما وأن عمل الطبيب الشرعي ينتهي رسميا في

الواحدة والنصف ظهرا ولا توجد نوبتجيات أو خلافه ٠٠٠ وفيما عدا بعض الانتقالات البعيدة فان فى مقدور الطبيب الشرعى المتمرس أن ينهى كافة أعمال المكتب فيه دون حاجة الى الانشغال به أو بالقضايا فى باقى اليوم ٠٠٠ كما وأن توفر أعداد متزايدة من الاطباء الشرعيين تخفف من هذا العبء حتى أن أطباء بعض المناطق أمكن تنظيم التردد يومين على الجامعة للدراسات العليا لكل منهم أسبوعيا دون أن يتسبب ذلك فى تعطيل العمل ، أى أن توفر العدد الملائم جعل من الممكن سير العمل بجهد أربعة أيام اسبوعيا فقط لكل طبيب ، اذن ما هو صلب المشكلة ؟ وما هو سر بقاء عدد محدود من الاطباء للعمل بالمصلحة رغم أن تكدس الأطباء وصل الى حد تعدد الاطباء فى الوحدة الريفية الصغيرة دون عمل ودون عيادة ، وما هو سر الهروب السريع للاطباء من المصلحة بعد فترات عمل مقيدة ؟ انه ليس بالطبع اشمئزاز الاطباء من التشريح ومن رؤية الدم والعفن ، فطالب الطب يحيا عامين من عمره الطبى دارسا للتشريح ومترددا على المشرحة ، كما وأن المهنة الطبية تدرب المرء على التغلب على اشمئزازه ، ففى عيادة الجراحة على سبيل المثال كم من " الخراريج " وكم من الصديد يرى الطبيب بل ويلامس ان لم يكن اكثر من ذلك ٠ فما زلت اذكر خراجا ضخما انفجر فور فتحه وانبثق منه الصديد الى وجهى وشفتى ، كان هذا فى

عيادة الجراحة ولم أشمئز ٠

اذن ما هو السبب ؟ وكيف أخبر شخصا ما عن مدى صلاحيته للعمل كطبيب شرعي وقدرته على تحمله وبقائه فيه ؟
هل هو تحمله لكثرة التنقل ؟ أعتقد لا فالمصلحة حاليا توطن كل طبيب في موطنه الاصلي أو تعرض عليه مكانا محتملا غير بعيد عنه مع توفيرها السكن المعد والصالح له ان قبل بالعمل في غير موطنه ٠
اذن ماذا ٠٠٠ ؟ !
أعتقد أن السبب الأساسي يكمن في القيمة الخلقية التي يتبناها الطبيب في عمله ، فتخفيف معاناة المريض ومداواة آلامه وتخليصه من مرارة المرض تشكل المبدأ الاساسي الذي يتعلمه الطبيب في كل لحظة ، وينال مكافآته عنه في كلمة شكر يذكره بها المريض عند تماثله للشفاء ٠
والمطلوب من الطبيب الشرعي أن يهرب بعيدا عن هذه القيمة ٠ متمسكا بقيمة أخرى هي " البحث عن الحقيقة " أو بمعنى آخر " الاتجاه الى جوهر الحكمة " ، وما زلت أسأل نفسي في كل يوم ، الى أي حد تتنازعني القيمتين والى أي حد اقتربت من احداهما أو ابتعدت عن الأخرى ، وهل يمكن أن يكون الطب الشرعي مزاوجة حية بين القيمتين ، وربما كانت الصفحات القادمة جزء من محاولتي اليومية للاجابة على هذه الأسئلة ٠

د ٠ سيد القط

ليلة في غرفة الأحراز

(١)

بعد يوم تتابعت فيه القضايا كالطلقات ... وبعد أن أنهكني انتقال بعيد لفحص جثة رجل وجدت في زكيبة ، وجثة طفلة أخطأت اناء اللبن فشربت مبيدا للحشرات ... عدت الى المكتب مكتئبا ... وانسحبت الى غرفة الاستراحة المتصلة به ... بعد قليل سيغادر آخر شخص المكتب ويسود هدوء أحتاج اليه ... ماذا يفعل ابني الآن بعيدا عني ؟ ... هل يمكن أن تسهو أمه فيكون مصيره أن يفحصه زميل لي ... طاردت غبار الأفكار الخانق ... ونويت كتابة خطاب عاجل أعيد عليها فيه التنبيه أن لا تسهو وأن تطرد غفلة الاطمئنان ... فالموت سريع غادر يأتي من آلاف الطرقات ... يضرب في غفلة وقبل النظر بطرف العين الى المكروه تتحشرج نفس خانتها ضربات القلب ، ويمر الموت في قلب حياة كانت تملأ وجدان العالم .

دق الباب ... لم انضو عني ملابسي المتربة بعد ... فتحته متثاقلا ... كان أمين المخزن تمتم في تردد :

ــ المخزن .. أعلم انك متعب .. لكن .. المخزن .

ــ ماله المخزن ؟

ـ امتلأ تماما بالأحراز ٠
ـ رحل بعض الزائد عندك مما تم فحصه ولا نحتاج الى مناظرته مرة أخرى ٠
ـ وكيف أعلم أنك لن تحتاج الى هذا أو قد تحتاج الى ذاك ؟
ـ باكر ٠٠٠ باكر سأمر عليك بالمخزن واراجع معك الأمر ٠
ـ لكنك لن تجد الوقت صباحا أبدا ٠٠٠ عملك يشغلك عن المخزن ٠٠٠ وأنا أخشى أن يأتي مفتش فيسألني ٠
ـ اذن ماذا افعل ٠٠ ؟ !
ـ استأذن أن ٠٠ أن ٠٠
ـ قل ما شئت وأسرع فأنا مجهد ٠
ـ أنت تركت الأولاد بمصر ٠
ـ تعلم هذا ٠
ـ وتقيم هنا وحدك ٠
ـ وتعلم هذا أيضا ٠
ـ ولا تخرج بعد الظهر ٠
ـ وهل فيكم من يخرج بعد الظهر ٠٠٠ أول يوم لي جبت جميع شوارعكم وفي ثاني يوم فعلت الشيء ذاته ٠٠٠ ثم لم أعد أجد لديكم ما يستحق المشاهدة ٠٠ والانتقالات كفيلة بأن تريني القرى والنجوع ونجوم الظهر صباح كل يوم ٠٠٠ هل يشجع هذا على الخروج بعد الظهر ٠٠

اننى أتحامل على نفسى حتى أقضى مدتى لديكم ثم أعـــود بسرعة الى اولادى بمصر ٠٠٠ حدثنى عن الأحراز فأنـــا مجهد ٠

ــ انى أقصد بحديثى عن الاحراز ٠

ــ وضح ٠

ــ أقصد ٠٠٠ وقتك بعد الظهر ٠٠٠ هل يسمح بمراجعــة البعض ، أقصد أن اخرج كوما من احراز المخزن فى غرفة وتراجعها ٠٠٠ وفى الصبح أقوم أنا بالترحيل ٠٠٠ هل يمكن ؟ ٠٠ هل يسمح وقتك ؟

أومأت برأسى فناولنى مفتاحا ٠٠٠ فسألته : ما هذا ؟

أجاب: مفتاح الغرفة بجوار المخزن ٠٠٠ الجميع هنا أمناء ٠٠٠ لكنك تعلم الحذر واجب اسلمك المفتاح وتسلمه لى باكر ٠

ــ أية غرفة ؟

ــ الغرفة التى بجوار المخزن ٠٠٠ كانت قبلا مكتبا لنائـــب الطبيب الشرعى ٠٠٠ فلما مرت عشرون سنة ولم يـــأت النائب اغلقناها ٠٠٠ ولما زادت عندى الاحراز وضعـــت بعضها فيها ٠٠٠ بالطبع البنادق والسلاح فى الغرفـــة الكبيرة للمخزن ٠٠٠ ولكن توجد بعض القطع الصغيرة فـــى غرفة النائب والملابس والأحراز الصغيرة ٠٠٠ وبعـــض ما أحضرته معك من أحراز أثناء انتقالاتك ٠٠٠ يوجد مكتـــب

نظيف وكرسى ·

ـ لقد أعددت العدة لكل شيء ·· ففيم تستأذننى اذن ؟

ابتسم فى دهاء ·· وانحنى ثم انصرف ·

— — —

(٢)

صحوت عند المغرب ... لا صوت ... أضأت النـــور ...
انتابنى بعض النشاط فأعددت كوبا من الشاى ... وحملـت
أوراقى وذهبت الى غرفة الأحراز .. قررت البدء بحرز ملابس
سهل الفحص ويبرز من فوق الكومة ... هذا الجلباب لمن .. ؟
.. جلباب زاهى اللون مفتوح العنق بلا أزرار ... وتلـك
الفانلة الخضراء بلون حقول البرسيم ... عنوان بطاقته محمـد
... هل تذكرت محمد .. ؟ قفز محمد من جوف الذاكرة الى
الغرفة ... ريحانة شباب القرية .. كم كان محمد محبوبا من
أهل القرية .. الفتى الممشوق ذو الصوت الساحر ... نـاى
فيه رنة حزن ورنة بهجة كانت حنجرة محمد ... نور الافـراح
بقرية يرقد فيها الحزن طويلا وتخطف لحظات الفرح قليلـة
وقصيرة .. هذا الجلباب اثقله الدم ، تصورته فوق محمد حيا
.. يتراقص .. يتطاير .. يقفز .. يتثنى .. يقصـر ..
يطول .. ، كم طار واتسع حين كان محمد يقفز فوق القنوات
فى رشاقة ، كم دار وتثنى ومحمد يلعب التحطيب فـى دوار
القرية .. هذا الجلباب كان يحب محمد .. وكان يلاحظ ـ
لا أعرف كيف ـ أن محمد غارق حتى أذنيه فى حب فتاة تدعى
نعمات .. آه يا نعمات .. حين رأيت محمد وحيـن رآك ..
عيناك تدوران ورائه وهو يدور .. ويحاور .. يشغله النظـر

اليك فينال الضربة ·· يتألم لكن يتماسك ·· يضحـــــك ·· ويعود يحاور ·· ويعود الى النظر اليك ·· وتعاودين النظر اليه ·· من خلف الباب الموروب ·· من بين اعواد الذرة على السطح ·· من شرخ خشبى فى النافذة ·· حتى من خلـــف الحائط كنت ترينه ويراك ·· وكان يضايقك التعليق الساخر من أمك عن أن محمد يرقص وليس لديه سوى جلباب واحد ذو لـــون فاقع وقماش سعره بالمليم ·· ها هو ذا الجلباب ·· يرقد فى غرفة أحراز رطبة ·· أنعشته ذكرى يوم كان يمتلىء بالهـــــواء والنشوة وبمحمد ·· ويدور متثنيا وراقصا من حوله فى الافـــراح ·· كانوا يقولون أن محمد يرقص وجلبابه يرقص ·· حـــــاول الجلباب النهوض ليفارق بلاط الغرفة البارد ·· ليدور ويتثنى · لكن هيهات ·· فمحمد الجسد الحى ما عاد كذلك ، شربتـه التربة وهضمته الديدان العفنة ·· يرقات ذباب أخضر يأكـــل لحما ·· ديدان شحمية لا تحترم حلاوة وجه أو رشاقة جسم أو وسامة ملامح فهذا كله بالنسبة اليها ليس سوى أنسجة مغذية ، وجبة شهية ·· هذا ما صار اليه محمد ·· أكلته الديدان ·· آلاف منها من عشرات الاحجام والاشكال ·· ديدان تحيـــــا دورة عبثية ·· آه لو كانت تعقل ·· لانتحرت يأسا وقت الفقس ·· تولد فى سجن المقبرة ، لن تخرج منه أبدا ·· تأكـــــل العفن وتحيا على رائحته الكريهة المفزعة تشرب السوائل النتنـة وتسبح فيها ، تولد فى الموت وبالموت تعيش ·· لحظة ثـــــم

تموت ٠٠ لا تتكاثر ٠٠ لا تتزاوج ٠٠ لا تحيا ٠٠ ديدان العفن صورة اليأس المطلق لها ولكل ما يتصل بها ٠٠ تلك الديدان الشرهة التهمت فى صمت محمد ٠٠ الجسد الغض اليافع ٠

وقصة محمد شديدة القصر ، فكما جاء بالتحريات ومحاضر التحقيقات ومما عرفت من الأهل وقت التشريح تخلص واقعة محمد فيما قيل م ، أنه التقى يوما صدفة بفتاته ٠٠ كان يسير فى عمق حقول القرية فاختصر طريقه نحو الترعة ، فرآها تحمل جرة ماء ، لم يملك نفسه ، وأين ستسنح من بعد الفرصة ٠٠ خضر حدثها ٠٠ ردت فى ٠٠ باح لها بالحب وبالوجد وبالرغبة فى القرب ٠٠ خشيا الأعين فاختفيا بين عيدان القصب المرتفعة ، تعاهدا على الزواج وأن لا تقبل هى شخص غيره حتى ان قتلوها ، وعاهدها أن يتقدم باكر لأبيها طالبا القرب ، حاول أن يلمسها فهربت كغزال برى ، ورأتها أم خديجة ذات " البوز " الملوى ، ورأت محمد يخرج من بين العيدان يضحك ويناشد نعمات أن لا تنسى الجرة ، فلوت " البوز " وجأرت بالصوت الفاضح : " استر يا رب على عبيدك " وتمتمت : نعمات جميلة لكنها فاجرة ٠٠ أما بنتى فبنت أصول وان كانت كادت أن تصبح عانس ٠ فى اليوم التالى تقدم محمد بين " العزوة " طالبا القرب ٠٠ لكن أبو نعمات

سفه فكرة أن تتزوج نعمات بنت الاصل وأحلى بنات القرية من
معدم ضائع لا يملك غير الناى وساقين تدوران بخفة فى الأفراح.
وسأل محمد فى سخرية : ماذا تجيد سوى اللعب بالعصا ،
وهل تفتح الغناوى بيتا ، أو يحضر الصوت الجميل جهازا !!
لم يشفع لفتانا شىء ، وطرد بعزوته شر طردة .
لم يمض أسبوع واحد حتى كان الأب والعم وأبناء العم قد سمعوا
بحديث يتردد فى القرية ، حول لقاءات سرية وخفية بين
عيدان القصب الكثيفة ، محمد .. نعمات .. محمد ..
نعمات .. محمد .. صارا حديث القرية ، البعض يقول حب
عذرى وهو عفيف ، ويحكى عن أغنيات كان يغنيها الصوت
الساحر لمحمد ، ويحكى عن نغمات سحرية انسابت من نايه
تتحدث عن نعمات والى نعمات .
لكن روايات أخرى تلوى صيوان الأذن وتثقب جلد الطبلة
وتعتصر القلب عن حب جنسى عاصف دمر الاثنين ، وعن قبلات
حارة ملتهبة وأحضان مجنونة ، وعن وصل وتداخل حتى
لحظات الشهوة ، وعن أن جنينا ينمو فى بطن المحروسة ،
وعن أن فضيحة كبرى على الأبواب .
وفى يوم داكن ، وقف هوائه ، وتراكم فيه غبار سدّ الأنفاس
وقفل الأعين ، دخل الأب على نعمات ومن حوله أبناء العم ،
غطى وجهه بقناع مرعب ، قناع دموى افريقى لافزاع الأشباح

ومقاتلة الشيطان وبث الرعب بقلب الأعداء ٠٠ قناع صنعته غضون الوجه ، وتقدم أبناء العم ، فزعت نعمات ٠٠ صرخت ، استنجدت بأبيها الذى طالما حماها وهدهدها على رجليه ، اهتزت أجفانه فى عصبية لكن لم يتحرك ، وسحب الرحمة عن نعمات ، وفى اليوم التالي وجدت جثة نعمات ملقاة بجوار الترعة ، حيث اعتادت ملأ الجرة ، وحين سألت أنا الأب أجاب : يمكن غرقت وهى تملأ بالماء الجرة ، وحين أشرت الى جثة محمد قال : لا أعرفه ٠٠ ولا شك أن محمد حين أحيط به فى الحقل فى مساء ذات اليوم الذى قتلت فيه نعمات كان قد علم بما جرى عليها من تنفيذ الحكم الصادر من أبناء العم ، فصراخ نعمات وصراع الموت أحدث آثارا فى أبناء العم وعرفته القرية ، وأن محمد حطم ـ نايه وشق الجلباب وجلس يبكى نعمات ، والثابت أن محمد لم يبدى أية مقاومة ، كان جالسا يبكى ، وكان نصف الشمس قد انحدر الى الجانب الآخر من العالم ، وتسربل العالم والحقول وقمم الاشجار بلون الدم وبوشاح الحزن الاسود ، وجهز المسرح لجريمة القتل الثانية فكما جاء بأقوال الشهود تقدم محمد الى أخو نعمات فى ثبات، وقبّل نايه المحطم ثم ألقى به الى الماء الجارف المنحدر من الهدّار علّه يسبح الى بلاد بعيدة يجد الحب فيها ملاذا وموطنا ، ثم تقدم الى غريمه الذى كان قابضا على مديته

المشحدة النصل ، وباعد شق الجلباب كاشفا الصدر وتاركا خصمه يعمد مديته فى القلب تماما ، ولا نستبعد ـ رغم جسامة الاصابة ـ أن يكون محمد وفقا لما رواه الشهود قد ردد اسم " نعمات " مرات عدة حتى مات ، كما وأن القطع الحاد الحاقه بالفانلة وعدم وجوده بالجلباب يتفق ورواية الشهود عن فتح محمد صدر الجلباب مستقبلا الموت .

هذا ووجدنا نعمات ـ المخنوقة بالحبل والمتوفاة من اسفكسيا الخنق ـ بكرا وغشاء بكارتها من النوع الحلقى الهلالى الرقيق وفتحته ضيقة وخال من التمزقات والرحم صغير وبكرى وخال ...

وحين سألنى الأب أخبرته أن ابنته لم يمسسها أحد .

وضممت جلباب وفانلة محمد الى الأحراز ... ها هى ذى مكومة تحت قدمى حزينة ... دمعتها قطرات من دم محمد .

---

(٣)

غمرتني نوبة حزن بارد ‥ حزن يثقب عظم عمودى الفقرى ‥
حين عثرت عليه بين الأحراز ‥ ها أنت ‥ يومك أسود ‥
ماذا أفعل بك ‥ مقذوف متطور من أثر الصدمة بعظام الرأس
‥ يبدو في المظهر تافه ، في حجم طرف أنملة الخنصر ،
أصغر اصبع ‥ رن على أرض الغرفة وكأنه يذكرنى أن معدنه
الصلب القمعى المظهر يعطيه وقارا ويميزه عن الانسجة المهدئة
لملابس وبقايا الأحراز من حوله ٠
ها هو ذا المقذوف القاتل ، من عيار التسعة ملليمتر ، وذو
الميازيب الستة جهة اليمين ‥ كتبت :
أطلق من سلاح نارى من عياره ليستقر في رأس الطفلة
عبير حيث استخرجناه ، عبير ‥٠ الطفلة المرحة الممتلئة
حياة والمشعة بالبهجة ، ذات السنوات السبع ‥ كانت تطل
من الشرفة على زميلاتها اللواتى يلعبن لعبة الكلب الحيران ،
وكانت للصيوان المنصوب وتنتظر الزفة ، طلبت من أمها أن
تنزل لترى العروسة ولتلعب مع زميلاتها لعبة الاستخفاء لحين
وصول الزفة ، لكن الأم اعتذرت فهى تخشى على عبير السلم
والباب والشارع وهواء النادى وغبار الطرقات ، والميكروبات ‥
وكل شيء ‥ كل شيء ‥ فعبير طفلتها الوحيدة والنسمة
الرقيقة الندية هبت على صحراء زواج أجدبه العقم عشرون خريفا

تتوالى فى بطء وتؤده .. " تبرك " كالجمل على القلب وتحط عليه الحمل .. والزوج .. ابن العم الطيب يعمل فى التدريس ويرى الأطفال فى كل صباح فتدمع عيناه ويحرقه الشوق ويتقلب فوق حريق الصبر .. لكن أبدا . لم يتكلم .. لم يغضب منها أو يفكر في الزواج بأخرى ، رغم أن التحاليل الطبية أثبتت سلامته تماما وأن العيب منها .. وبعد يأس مطبق .. مغلق ، وليالى قضتها ترتج نحيبا ، وتنغرز بلحمها الأفكار السوداء كالابر ، فجأة .. اصابتها غمة نفس ووجدت بطنها تكبر ، وأحست بدفعات الأكواع والأرجل الصغيرة بالداخل ، دارت بين أطباء البلدة .. قال أحدهم : حمل كاذب ، وقال الآخر : غير ممكن ، لكنها كانت تعلم علم اليقين أنها أخيرا حامل .. ضحك الزوج الطيب ابن العم .. ابتهج .. ارتعد فرحا .. بعد عبوس طال وزال ، قال انه يريد بنتا ، بل كان يقسم على أنها تحمل فى بطنها بنتا جميلة ، كان يقول أن الأم الحامل فى بنت تصبح أجمل ، وأن زوجته صارت أحلى وأجمل ألفى مرة عن ذى قبل . ويوم الولادة احتضن الأب عبير وبكى ، وقبلها وقبل زوجته فى حب طاغى وقال : سندور بها فى كل مدن مصر ، سأريها لكل أقاربنا حتى من سافر للخارج .. أخيرا أنجبنا أجمل طفلة ، ولما تكبر سأريها البحر الأبيض

والبحر الأحمر وأسوان والأقصر ، سأريها سيناء ، سأحملها فوق الكتفين وأدور بها في كل مدينة وسنضحك ليلا ونهارا ، وسأحضر لها الكتب المصورة ، سأجعلها تقرأ وعمرها عامين وتكتب في ثلاثة ، هل يمكن ؟! نعم فهي تبدو ذكية مثل أبيها وجميلة مثلك يا أم عبير .

لذا كانت أم عبير تخشى عليها من النسمات ، تحملها في الجفنين وتفرش أهدابها طريقا لها وترتعد ان بدا عليها أقل ضيق ...

قالت الأم لعبير حتى لا تغضب : المنظر سيكون أجمل من شرفتنا ، تحت زحام ، ولن ترى شيء ، من هنا سترين العروسة والزفة وكل شيء .

مرت دقائق وذهبت الأم الي الثلاجة لتعد كوبا من الشربات لعبير حتى لا تطلب منها أن تنزل لتشرب شربات الزفة ، وترامى اليها في المطبخ صوت قدوم الزفة ، وضحكة عبير الصاخبة المرحة وهي تناديها لتنظر ، وترامى اليها صوت الاعيرة النارية من بعيد تحية للعريس وللزفة .

فجأة سكت الصوت وانسحق قلب أم عبير وهي تنصت لصوت ارتطام مكتوم لجسم بالأرض ، جرت صوب الشرفة لتجد عبير مكومة في ركن الشرفة بلا حراك ، صرخت صرخة حيوان مذعور اشتعلت فيه النيران وطارده الصيادون ، حملتها وقفزت

حافية مذ هولة .. قفزت درجات السلم ، وقعت على ركبتيها ، جرحت لكن لم تشعر ، زاحمت الناس ، دفعتهم وجرت نحو المستشفى بالقرب من البيت ، استفسر منها الأطباء فقالت : وقعت فجأة ، سألوها عن الأمراض والاعراض والحقن فنفت بد موعها كل شيء ، بحثوا عن اصابات فلم يجدوا شيء ، فالمقذوف الغادر شق طريقه بين الخصلات السوداء الداكنة لشعر عبير وأحدث شقا لا يظهر للعين العادية الا بعد ازالة وحلاقة شعر عبير ، ولم يحدث نزفا دمويا قد يوحي بحدوث الكارثة .

تحير الأطباء .. قال احدهم : لدغة حشرة مجهولة ، استدعوا نائب أمراض الباطنة .

ولما حضر من مسكنه كان الأب قد حضر ، عاد فوجد الشقة مفتوحة ، والناس يقولون له أن أم عبير وبدون سبب واضح كانت تجري حاملة اياها للمستشفى ، ترك هو الآخر باب الشقة مفتوحا وجرى .

قابلهم نائب أمراض الباطنة وأعطى لعبير كل الأمصال ، وأخذ دما منها وأعطاها حقنة ديكادرون وحقن أدرينالين وكالسيوم لكن عبير لم تفق من اغمائها الطويل ، مرت ساعة ، فأعاد الفحص وكتب على التذكرة : شلل نصفي ، يستدعي نائب الأمراض العصبية ، حضر .. احتار .. استدعي الاخصائي

وجدوا تليفون منزله لا يعمل ، جرى والد عبير ومعه العنوان يشير للناس وللسيارات في الطرقات ويجرى .. صار قلبا يجرى .. كبدا يجرى .. نفسا تجرى .. وكأنه يعبر بابنته البرزخ لينقذها من موت داهم ، وجد العنوان فدق بكفيه الباب صرخ فى وجه الاخصائى وبكى ، لم يفهم منه شيئا لكنه جاء معه ، وبعد دقائق طلب أشعة ، عاد الأب الى الجرى ، ولم تطلق الأم سكونا فكانت تعد و بين حكيمات المستشفى تستعطفهن وتطلب منهن اطمئنانا كاذبا بأن عبير بخير . لم يجد الأب فنى الأشعة ، مرة أخرى أخذ العنوان وجرى ، لم يجرى ابدا طول هذا الوقت فى حياته ، فى بيت الفنى لم يجده ، علم أنه فى زيارة لأقاربه في قرية بعيدة ، القى بنفسه أمام سيارة أجرة ، رق السائق لدموعه ولنقود ألقاها بغير حساب من نافذة السيارة وهو ما زال بخارجها ، ذهب معه ، مرت ساعة .. ووجد فنى الأشعة يشرب قهوة ويثرثر عن السفر المزمع للخارج والأجر المضمون العالى ، سحبوه ، وجذبه الأب من ملابسه ودفعه الى السيارة ، ومن دموع الأب فهم الفنى ، وعادوا ، مرت ساعة حتى وصلوا للمستشفى ، قام الفنى بأخذ صورة أمامية خلفية للجمجمة وأخرى جانبية ، وحمضها وجففها حتى تظهر ، لكن العينين اللتين قرأتا صورتى الأشعة وناظرتا المقذوف الظاهر فيها والمستقر بنسيج

المخ لم تكن عينا جراح المخ ، بل كانتا عينا الطبيب الشرعى ، عيناى ، فقد نقلت عبير اثر وفاتها الى مشرحة المستشفى قبل جفاف أفلام الأشعة ، هذا المقذوف المجرم ، استخرجته من رأس ملاك فى السابعة من العمر مسجى على مائدة التشريح ٠

ومن بين خمسة عشر جثة قبل عبير كانت عشرا لضحايا اطلاق النار للبهجة فى الأفراح ٠

— — —

(٤)

ما هذه الرائحة النفاذة ٠٠ آه ٠٠ ها هى ذى ملابس سيد افندى تتسلل بجوار المكتب ، مفعمة بالكيروسين ومحترقة ، سيد افندى أذكره ٠

مات متأثرا بتركز الدم والصدمة العصبية الناشئة عن الحروق المنتشرة بسائر أنحاء الجسم ٠٠ الجذع والأطراف ٠٠ الوجه والرأس والعنق ٠٠ الصدر والبطن والظهر ، لم ينجو شئ سوى جزء من أخمص قدميه ، شعر الرأس مشعوط ، وكذا رمشيه وحاجبيه ، ورائحة الكيروسين تفوح قوية من جثة سيد افندى ، كانت جثة سيد افندى ترقد ساكنة تماما ، كما كان سيد افندى مكسور الجناح ، مهيض الجانب ، مقدور عليه ، لا ينبس ببنت شفة ولا يعترض ، ولا يرفع فى وجه القدر أو فى وجه أى انسان ذراعا بل ولا حتى اصبعا ٠

كل القرية كانت تحكى عن سيد افندى ، فلم يكن كذلك طول العمر ، يحكون عنه أيام كان طالبا ٠٠ كان مهتما بالدراسة وينوى أن يصبح أفضل شبان القرية ، كان يدور على البيوت فيكتب معظم خطابات أهل القرية لذويهم ، ويقرأ ما يصل اليهم ، كان الرجال يصغون اليه ويقولون : سيد شاطر ومثقف ٠

وكان كل مساء يسألونه عن الجرائد وما فيها من أخبار

فيقرأها لهم ويفسر .
وفى الثانوية ومن بين الاقران الصرعى برز وفاق الكل ، ودار به الوالد والأخوة محمولا فوق الأعناق ، سيد شاطر ومثقف، سيد ناجح ، سيد فخر القرية . وظل الناس سنوات أربع يفتقدون سيد أفندى سوى ما كان من الاجازات الصيفية حين كان يغلق الغرفة التى استأجرها له أبوه المعدم من قوت يومه ويعود الى القرية ليقرأ للناس الخطابات والجرائد .
يقولون أن سيد افندى كان قبل التخرج يلعب الكرة ، كان نجما للهجوم وكان يلعب لفريق المركز ، وكان حصول سيد افندى على البكالوريوس عيدا فى القرية ، هتفوا له وقالوا : سيد افندى الاول ، وأشاعوا أن مناصب عظمى تنتظره ، وأن سيد افندى سيدخل بيوت العظماء ، وسيدخل للقرية مياه للشرب لم يمسسها الصرف الصحى او المبيدات ، بل أن أحدهم هتف : تنتخبنم مين ؟ فأجابوا فى صوت واحد : سيد افندى .
واشترك فريق الكرة بحفل القرية مساندة لجناح بارز فيه ذو ساق ذهبية اعتادت أن تحرز أهدافا صعبة ، وتهدد حراس المرمى .
وفى اليوم التالى ولما كان سيد أفندى يستشعر قوة فكر فى عزيزة ، صحيح جاهلة ، وصحيح لا تفقه شيئا ، لكن حلوة ،

همس في أذن أباه فما كذب خبرا ، جره ورمى عباءته على كتفيه ودق على باب أبي عزيزة ..

انتابت فرحة عظمى عزيزة وأباها وزغردت الأم ، سيد افندى سيتزوج من ابنتها ، وسيصبح موظف محترم في الحكومة ذو مالية كبيرة ، وستأكل يوميا لحم ، وعزيزة ستكف عن حمل البيض وبيعه في البندر ، وستمتلىء يديها أساور ذهبية ونقود وهدايا .

مر شهر سعيد ، كان سيد وعزيزة يتبادلات الاشارات من فوق الاسطح المتجاورة ويبتسمان ، صارت حياتهما أجمل .

لكن مر شهر آخر ، وفي الشهر الثالث دخل سيد في الدور وذهب الى القرعة وجند .

مرت مدة قاربت العامين حتى ترك الجيش سيد افندى ، طقت فيهما أم عزيزة صبرا ، وانتابت عزيزة نوبات هستيرية ، وأخيرا استلم سيد افندى عمله ، موظف بالمركز ذو دخل ثابت وذو مكتب ، خافوا أن يفلت أو يتراجع أو ينظر لموظفة مثله ، جهز أبو عزيزة وأبوه بسرعة — وبنقود الدين وبصكوك وقعها سيد — غرفة في بيت عزيزة ، وتزوج سيد افندى

قال أبوها : في المستقبل ستؤجر شقة في البندر وتفرشها أحسن فرش وتأخذ فيها عزيزة ، انشاء الله في العام المقبل .

عامين مرا حتى امكن لسيد افندى أن يفي بدينه ويسد الأقساط

عليه ، وعام آخر مر ارتفعت فيه الأسعار في حين ظلت جنيهات سيد افندى مربوطة على الدرجة ، وانتفخت فيه جيوب بالأموال ، قالوا تجارة ، وقالوا من الخارج ، وقالوا وقالوا ... وقالت عزيزة : شطارة .. ماذا فعلت ببكالوريوسك عام آخر .. وعام آخر .. وقروش علاوة سيد افندى الدورية تبتلع سداد لديون بدأت تتراكم ، وعزيزة تزداد عليه جرأة ، تعيره ، تضايقه ، تنكد عليه ، وأمها بدأت تسبه وتسب أباه المعدم .

وبدأ الذل يركب سيد افندى ، ازداد الاحساس بقهره وهوانه وعجزه وضيق ذات اليد ، وبدأت السنون تهز ساقاها وهى راكبة كتفه وضاغطة عموده الفقرى ومجبرة اياه على الانحناء ، وكف سيد افندى عن قراءة الجرائد والخطابات ، وكف عن لعب الكرة ، وصار يمشى مهموما ويدور بعيدا وكأنه يخشى العودة للبيت ، وصار يعمل وقتا اضافيا ، ثم يعمل فى مكتب بعد الظهر ، وصار مهلهل الهندام ممزق الملابس مثقوب الحذاء قليل العناية بمظهره ، ومر عام آخر ، وحملت عزيزة ، ومرت الشهور ثقيلة ، وجاء حين الولادة . وأدارت عينيها فوجدت حولها خواء ، نادت أمها ، لم يعد لدى سيد افندى من يعيره مالا ولو بفائدة ، طالبت أمها أن تدفع وسيد افندى سداد ، وشاهد سيد افندى " الداية " تخرج

وتدس نقودا فى الصدر ، ومدت يدها اليه فتجاهلها ودخل ليحتضن الطفل .. ولد .. فرح وصاح — قبل أن تخرسه نظرة قاتلة من أم عزيزة — " سيصير أحمد .. أحمد افندى " وتجاهل لفظا قذرا خصت به أم عزيزة الافندية من أمثاله ، وأدهشه أن أم عزيزة ظلت أسبوعا كاملا تذبح لابنتها دجاجة فى كل يوم ، وحين سألها زمجرت فسكت ، وعلم من عزيزة أنها لتعويض الدم ، وحتى تملأ المكان الذى خلا بنزول أحمد بالدجاج .

وفى يوم عاد مبكرا ليسمع حديثا مبتورا كانت عزيزة تقول فى نهايته : بعد " الأسبوع " سيدفع والحذاء يعلو رقبته ... وتوجس سيد افندى خيفه ، لكنه ظن أن الأمر خاص بالاحتفال بمرور أيام سبعة على ولادة ابنه ، وظن أن أجر الداية والسبع دجاجات مجاملة من أم عزيزة لابنتها الكبرى ولحفيدها الأول ، وان كان عاد وتوجس خيفة عندما تفكر فى مغزى أن أبا عزيزة متجهم دائما ولم يهنأ بالولادة رغم أنه دفع له ايجار الغرفة هذا الشهر مقدم .

وفى اليوم السابع ، وبينما كان سيد افندى يحتضن طفله الاول فى فرح سحبته أم عزيزة بعيدا ، وتناولت عزيزة منه الطفل ليسمع جيدا — كما أخبرته — الى حديث أمها وخطابها التاريخى الهام اليه ، وكان حديث أمها وجيزا وفى الصميم : زوجتك كلفتنى اربعين جنيها وعليك السداد فورا .

وضرب سيد افندى اخماسا فى اسداس ، فالمرتب باق عليه عشرون يوما كاملة هذا ان أمكنه استمهال الدائنين الى ميسرة لا تأتى أبدا ، وحاول استمهال حماته حتى يوم القبض أو حتى تستمهله بحكم القربى شهرا أو شهرين فرفضت وأيدتها عزيزة ، وأدارا سويا الاسطوانة القديمة عن فشله وضياعه وخيبته وقلة حيلته ، وحاول هو أن يدير اسطوانته المفضلة عن أنه لا ينفق شيئا على نفسه ، وأنه لا يشرب السجائر ولا الشاى ولا القهوة ، ولا يفطر فى الصباح ، وأنه يأكل الخبز " البائت" للتوفير ، وانه يسير عشرة كيلومترات يوميا ذهابا وعودة حتى لا يركب عربة أجرة بالفرد كباقى الموظفين ، وعن أنه عند ما يرى الطريق غير ممهد أو به قلاقل أو أحجار مسنونة يحمل حذائه فى يديه كى لا يستهلكه ، وانه فى طريق عودته يدور فى شوارع البندر حاملا فى حضنه بقايا الطعام الملقى وقشور البطيخ والطماطم المدهوسة ليعود لأم عزيزة يأكل طيورها معه ، وعن أنه صار لا يقرأ ولا يشترى الجرائد وينام مبكرا ولا يوقد " اللمبة الغاز" ولا يستهلك شىء على الاطلاق ، وانه يسلم كل ما يصل الى يديه من نقود الى عزيزة والى الدائنين دون أن يستبقى مليما لنفسه .

ولكن اسطوانته لم تفلح فى هذه المرة فى التخفيف من غضب المرأتين الثائرتين ، وظلت العيون الأربع متقدة والأيدى

الاربع تتحفز للضرب ، وآثر سيد افندى تجنب القتال أو بالأحرى تجنب الضرب فقد صار منذ مدة لا حول له ولا قوة أمام شراسة المرأتين فطلب المهلة مرة أخرى وانسحب هاربا من وجهيهما ...

لكن المرأتين تبادلتا كلمات حادة بشأنه ، وبيتتا أمرا .

وفى نفس الليلة ، وبعد أن نام سيد افندى مهموما اقتربت منه عزيزة لتلاحظ أن النوم عميق كالعادة اثر المجهود المضنى طيلة يوم أرهق سيد افندى ، ثم اتجهت للباب وفتحته لتدخل منه الأم حاملة ملء وعاء من الكيروسين ، ذكرتها الأم بصوت خفيض : لا تنسى أو ترتبكى .. سنقول زهق وأشعل فى نفسه النار .

وصبتا الكيروسين على الجسد النائم وعلى وسادته ومرتبته ، ولا يدرى أحد بم كان يحلم سيد افندى فى ذات الوقت، فربما كان يحلم بالحوافز أو بالعلاوة أو حتى بالترقية ، وربما كان يحلم بابنه ، وبأن يصبح أحمد افندى ، فى يوم قادم فى المستقبل يصبح فيه الافندى افندى ، وبأن لا يصبح مثله ، مثل حمار جائع مربوط فى ساقية صدئة لا تتحرك أبدا ، وربما كان يحلم بشخص يلبس أبيض فى أبيض يعطيه الاربعين جنيها بلا مقابل ويبتسم ويبارك ابنه ، وربما كان لا يحلم على الاطلاق بعد أن أطبق عليه اليأس فى يقظته ومنامه .

ألقت أم عزيزة بعود الكبريت المشتعل ، وهربت المرأتان

حاملتان الطفل ، واستيقظ سيد افندى على ألم هائل والنار تأكل جسده ، صرخت كل خلية فى جلده وصرخ ولم يفهم بعد الموقف ، وقبل أن يدرك شيئا كانت النار قد قبضت عليه واحكمت قبضتها وانشبت مخالبها فى كل قطعة من جسده ، جرى محاولا الخروج فوجد الباب محكم الاغلاق ، حاول اطفاء نفسه ففشل ، عاد يدفع الباب بعنف حتى كسره ، لم يجد أحد بردهة المنزل ، لم يدق باب أبو عزيزة وأمها مستنجدا ، فقد أدرك فى لحظة الموقف ، جرى الى السلم وصعد الى سطح المنزل . وصرخ مناديا أبيه ، وحاول أن يعبر اليه الحاجز بين المنزلين فانزلقت قدمه ووقع فى الزقاق الضيق المظلم الملتوى ، شق صراخه صمت القرية ، وحين اجتمع عليه الناس لاطفائه كان الوقت قد أصبح متأخرا وكانت النيران قد أحدثت به حروقا من الدرجات الأولى الثلاث ووصلت فى بعض المناطق للدرجة الرابعة ملتهمة أجزاء كاملة من جسده ، وأصبح علاجه أو انقاذه فى حكم المستحيل، ورغم اننى قررت ترجيح حدوث الحرق عمدا استنادا الى فحص الجثة وما أوردته المعاينة وفحص ما تبقى من ملابسه والى مجمل ظروف الواقعة الا أننى ما زال الألم يعتصر قلبى كلما تذكرت الجسد المحترق لسيد افندى .

---

(٥)

ملابس من هذه ؟ .. جلباب عملاق يكفى ليكسو أرض الحجرة ، فيه عشرات من القطوع والثقوب ، القطوع الحادة الحواف تشير الى اصابات قطعية وطعنية من أسلحة ذات حواف حادة ، سكاكين ومدى أو ما أشبه ، والثقوب مواضع خروج ودخول لأعيرة نارية متعددة .. من كان هذا .. ! ....
قرأت بيانات الحرز وتذكرته ، عبد الباقي الشهير بعبده أو المعلم عبده ، فتوة المركز والبندر ، صاحب العصابة ذات السطوة ، ذلك الشاب الفارع الطويل المفتول العضلات ذو اليدين الكبيرتين الباطشتين اللتان اعتادتا استعمال جميع الأسلحة دون تردد ، ورغم أن عبده حين رأيته كان مجرد جثة الا أن العامل المختص بمساعدتي ، فنى التشريح تراجع خطوتين للخلف حين ميز الملامح الصارمة والتضاريس العبوس لسحنة عبده المقلوبة رغم الموت ، سألته : مالك ؟

قال : أعذرني يا دكتور .. كنت أعرفه وأخافه ، وما زلت استشعر خوفا منه .

قلت : رغم الموت .

قال : نعم .. رغم الموت .. فسيادتك لست من هذه الانحاء ولا تعرف عبد الباقي ، قص على حكاية عبد الباقي ،

كان اذا قام قام جميع من حوله ، واذا جلس ظلوا منتبهين وقوفا حتى يأمرهم بالجلوس ، كان شيوخ الخفر يرهبون عبد الباقى ويرسلون اليه الهدايا حتى يبتعد عن منطقتهم وحتى لا يحرجهم ، غضب مرة على قرية فهاجمها ليلا ، وانتزع سلاح الخفراء ، ولولا أن العمدة دفع المعلوم وأرضى عبده واعتذر اليه لصارت قصة ٠

فى الليل يصعد عبده سلالم عرشه ، وتدين له بالطاعة منطقة تتخطى مدى بصره ، ويدور أفراد عصابته لجمع الاتاوة من كل صاحب محل أو مصنع أو مزرعة أو سيارة نقل أو أجرة ، ومن السوق . ، بل حتى من كل مفترشى الارض من الباعة وحملة " المشنات " و " عربيات اليد " ، لم يكن يبدو على عبده أنه يحمل سلاحا ، ولا يعرف أحد أين بالضبط يخفى سيفه الشهير ، ولكن ما أن يبدأ أى قتال حتى يلمع بيده سلاح براق يعكس ضوئا خاطفا للابصار ، وكان ظهور السيف يحسم أى قتال ، واذا ما نزل الى الميدان خلت الساحة والويل لمن يبقى ليواجه سيف عبد الباقى ٠٠ هذا السيف تروى عنه وعن عبد الباقى قصص وأساطير عن كيف واجه به الاسلحة سريعة الطلقات ، وكيف قاتل به عشرات ، وقبل

كل شيء كيف أطار به رقبة منافسه السابق في السيطرة على عالم الليل في المنطقة .. "حسن السبع" ..
وجدوا جسده في يوم ، ووجدوا رأسه بعد اليوم الرابع ، ويرد دون رغم أن المعركة دارت على الملأ وفي منتصف الظهيرة كيف اختفى السيف ، واختفى الشهود ، وظهر آخرون يقسمون أن عبده كان معهم بعيدا وقت ارتكاب الجريمة وان لا شأن له بها ، وبهتت معالم كل شيء ليفرج عن عبده لضعف الاتهام وعدم كفاية الأدلة .
لا بأس .. لم استشعر خوفا أو رهبة كفني التشريح ، ربما لأني لم ألقاه الا عاري الجثة خارج من ثلاجة موتى رقد فيها الليل بطوله وقبل أن نرفع عن عبده ملابسه ونرى حقيقته التي جعلتني استشعر رثاء له رغم كل ما فعل ، كان فني التشريح ما زال يتحدث عنه : عبد الباقي يا دكتور حين كانت تعجبه امرأة يذهب اليها في بيتها ، ويجعلها تطهو طعامه ، ويأكل ويشرب معها وينام على فراشها وزوجها يجلس في الصالون لا يقدر أن ينبس أو يتنفس ، ولا يرفع بعدها عينا ، فالشارع كله يعلم ماذا كان عبد الباقي يفعل عنده ، حتى ان أقسم على الماء ليصبح لبنا أن الأمر كان مجرد زيارة وأن عبده لم يفعل شيئا ، ورغم شماتة واضحة في كلمات وغمزات البعض الا أن الكل كان يسكنه فزع قاتم من أن تظهر

زوجة أو ابنة من النافذة ، أو في الشارع أو أن يستلطف عبد الباقي يوما أن يرقد عنده ، لكن عبد الباقي لم يك يقنع بامرأة واحدة ، ففي كل شهر كانت دورة تغيير تحدث ، ورغم اختفاء النساء كان عبده يعرف كيف يجدهن ، ومن هي أجمل زوجة في هذا الشارع أو ذاك ، وكلما زادت غيرة زوج وحرصه تزايدت فرص أن يدركه عبده ويبيت لديه ، يا دكتور ، كان يطمئنني فقط اني متزوج من عانس تكبرني سنا ، لا جدوى منها حتى ان بات معها عبده سبع سنين فلن يصدقها أحد ان قالت انه نظر اليها ، الا أني كنت أخشى على نفسي من المهانة أو من صفعة قد يحلو لعبده أن يداعب بها قفاي في الطريق فلا أعود رجلا ، وتلزم لي الهجرة كما فعل كثيرون منذ أن سيطر عبده على المنطقة ، زمن غدار .. لم أك أتصور اني سأقترب منه هكذا ... كنت في كل يوم أتربص لأعلم أين يجلس عبده فأدور بعيدا عنه مسافة كيلومتر ، وهذا ما كان يؤخرني احيانا عن عملي ، دنيا خائنة ، لا تترك الراكب راكبا أو الماشي ماشي ، في الشهر الماضي يا دكتور طلق رجل زوجته بسبب عبده ، وربط آخر في قدمه حجرا ثقيلا وقفز الى النهر بلا عودة وقبل ذلك جن اثنين واختفى آخر وهاجر آخر ... وآخر وآخر وآخر .....

ها أنت ذا أيها المارد ، تمددت أمامي على طاولة التشريح

وبجسده آثار اصابات لكل الأسلحة المعروفة ، فؤوس وبلطة وسكاكين ومدى وسيف أو ساطور ، واصابات قطعية رضية هشمت الوجه والرأس وحطمت القفص الصدرى ، ومجموعات من الثقوب النارية لمقذوفات مفردة ، ومجموعة من فتحات الرش المركزية لأسلحة الخرطوش ، ما زال يرن فى أذنى صوت عامل التشريح : قتلوه فئران يا دكتور ، والله فئران صغيرة نحيفة تتضور جوعا ، لو نظر الى واحد منهم لصعقه ، لكنهم اجتمعوا عليه وهو راقد لا يرقب غفلة ، كانت المرأة التى حملها معه عنوة الى بيته زوجة لأحدهم وابنة لآخر وأخت لثالث ، كانوا تسعة تربطهم بها وشائج دم ، حين جرّها عبده من وسطهم اصابهم شلل ، بهتوا ، وبقيت عشرة أيام فى منزل عبده لا تخرج ولا يخرج ، ومن حين لآخر يظهر أحد الصبية ويدق على الباب فيقدم لعبده طعاما ونبيذا هدية من صبيان أكبر منه يدعون لعبده بالبهجة وينتظرونه حين يفرغ أو يمل على القهوة .

فى كل يوم كان الخوف والغيظ يدور عاصفا برجال تسعة ، وان كان كل منهم يمكن أن يتعشى به عبده ، لا نعرف كيف — ولأول مرة منذ سنين — صار الغضب سلاحا ، والخوف ضربات لا ترحم لمسببه ، فى الليل فتحت لهم الباب ، كان راقدا يركبه الحشيش والأفيون والخمر ، تململ فى مكانه ، وحين رأى الأسلحة تنهال عليه فى رعب مجنون مد يده الثقيلة

بفعل المخدر الى سيفه لكن بلطة ثقيلة بترت اصابعه ، قام
٠٠ ترنح ٠٠ وسقط ، لم تسوقف جزء من لحظة عملية قتله ،
أو يخفت اصرار المنتقمين ، بل انهم ـ كما يظهر من عدم
حيوية كثير من الاصابات وعدم وجود انسكابات دموية حولها ـ
ظلوا يضربوه فترة طويلة بعد الموت ٠

عندما اكتمل عرى عبده ، وصار لا يستره شيء ، بهت العامل
سألني : ما هذا يا دكتور ؟

ـ ماذا ؟

ـ أين عضو عبده الذكرى ؟

ـ ضامر ٠٠ ها هو ذا وان كان اقصر من سنتيمتر ، عيب
خلقي ولد به عبده ، يمكنك ان تمسكه بالجفت حتى
تتبينه فقط افحص بعناية فى الموضع المعتاد ٠

ـ وماذا كان يفعل ؟ وكيف كان يفعل بهذا البرغوث ؟

ـ أوتسألني بعد أن رأيت بنفسك ؟ ٠

ـ ـ ـ

(٦)

هبت رائحة عطرة .. اخترمت جسم الموت ، واكتسبت منه بهاءا أبديا ، منديل مربوط فيه غطائى رأس ، أحدهما أخضر والاخر أبيض ، وجدتنى أذكره ، كانت عيناه تنظران فى هدوء وطمأنينة ، كأنه ما زال حيا يدلى برأيه فى سماحة وثقة بنفسه وبمحاوريه ، أيها الجسد النبيل المشرق ، بثثت فى قلبى هيبتك رغم رقادك الأبدى وأفعم قلبى احتراما لك وحبا ، اننى انحنى لأقبل طرف ثوبك أيها العارى على مائدة التشريح ، أيها المظلوم الذى وأدت الكلمة فى حلقه وسدت مسالك تنفسه بغطائى رأس حتى يسكت الى الأبد . انهض فى جلال ، فمن بين شفتيك ستخرج الحقيقة ، خذنى اليك يا كتاب الموت ويا ترانيم ايزيس ، خذنى اليك أيها الذاهب الى الشاطىء الغربى لتصبح حقيقة أبدية ، جسدك الميت قد صار قاضيا أبديا لا يموت ومن بين شفتيك الذابلتين والمطبقتين أبدا ومن حلقك الميت سيخرج نور باهر .

الموت للناس جميعا يعنى عدما وخواءا ورياحا تذرو رملا ناعما أصفر يملأ فم الأحياء بخواء اللاموجود ، الموت فناء ، لكن بالنسبة لك فالموت حياة أبدية ملىء العين وملىء القلب واندفاع الى محيط الحياة الهادر ، أيها الضارب بجذورك فيما قبل الأسرات أقلع بى فى سفينتك فمن جبنى ستولد قوة ،

ومن خوفى ستنبثق شجاعة ، أعلم أنى أهرب منك وأبحث عنك
وأجد وجودى فيك، يا من مت ضحية للتعذيب ·
لمست بأصابعى في شفقة مواضع اصابتك ، آثار رضية حيوية
طويلة ذات عرض يكاد ينتظم ، تملأ ظهرك ·· جنبيك ،
أعلم الآن أنك ضربت ضربا مبرحا بالعصى القصيرة التى صممت
لتتلائم مع ضيق المحبس وحشو فمك حتى لا تصرخ ألما ،
وربطوا يديك خلفا بالمنديل ، ولما مت بأيديهم كتبوا
بالأوراق : انتحر ·· ربط يديه خلفا بمنديله وحشا فمه
بغطائى رأس ثم شنق نفسه ·
أقول لك وأنت خلف صخرة الأبد ، ورغم أنى لا أرى رأيك فى
كثير من الأمور الا أننى لا أشك لحظة فى صدقك واخلاصك ،
فها قد دفعت ثمنا لهما حياة كاملة ·· أقول لك أنى أضعك
فى القلب من قلبى ، فطاب مساؤك يابن الشمس ، طاب
مساؤك يا أميرى الحبيب ، لم أستطع أن أضع مشرطى فى
جسدك ، واعتذرت عن تشريح جثتك ، جاشت بى نفسى ولم
أتمالك أحسست أن دمى بالعروق صار دمعا فهربت منك ،
لكنى أهرب دوما منك اليك ، وفى كل ليلة أعود لأراك
بأحلامى ، فى لحظات شبحية ، أرى أنى أهبط اليك فى
المقبرة وأفك عنك الأكفان ، أمشى على أحجار مسنونة بقدمين
عاريتين ولا أشعر بألم ، وأراك راقدا فى ركن حجرى بارد

مظلم ، وحين أفك أكفانك ترتعد يداى وقلبى ويرتجف الفكر وأشعر مرارة منفجرة بتجويف الفم وعلقم وحنظل باق أبدا بين الشفتين ، وخنجر فى الحلق ، وفجأة أدخل فى الكابوس، ويتقدم منى شىء ما شديد الضخامة ، لا تتسع المقبرة لحجمه لكنه يمشى فيها بحركات آلية صرفة ، شىء يشع لا انسانى ٠٠ لا ملامح ٠٠ ولا وجه ٠٠ ولا شىء يميزه ، لكنى لا أسمع صريرا آليا وأدرك من ليونة الحركة النسبية أن أمامى مادة حية وان كانت تخلو من حس أو ادراك أو قلب ، يدنو منى فيجتاحنى احساس بالخطر الداهم وأحاول الحركة فأجد أطرافى مقيدة بآلاف الخيوط الوهمية ويصيبنى شلل تام ، وتسحقنى قدم ضخمة توزن بالأطنان ، تتحطم أضلاعى وتنغرز أطرافها المسنونة فى رئتى وتنسحب آخر ذرة هواء بعيدا ، تمتلىء الحويصلات الهوائية بالدم ، وأرى وأنا أصارع موتا محتوما طيور كثيرة سوداء ، رؤوسها مناقير جارحة وبلا عيون ، تسد الأفق بحجمها الكبير لكنها حين اقتربت منى استطاعت أن تنفذ من مسام الجلد ومن فتحات أنابيب العرق الى الداخل ، واستقرت تتناهش قلبى وبقايا الرئتين وتفتت كبدى ، وسبحت عصبة منها عبر الدم الى المخ تنقر وتمزق كل مناطقه الحيوية . ولكنى ورغم بشاعة الكوابيس التى تنتظرنى أتوق فى كل يوم الى النزول إلى مقبرتك لألقى عليك تحية المساء وافك عنك الأكفان كى تنهض من جديد .

— — —

(٧)

عرفتها دون أن أفتحها .. تلك الورقة المطبقة فى عناية
والملقاة بين الأحراز ، كم بحثت عنها لأرفقها بأرشيف القضايا،
الصورة السابعة من تقرير الاعدام موقعا عليها منى ومن طبيب
السجن ، فضضتها ، واحساس مرير بالعزلة يجتاحنى ،
عندما أتذكر الاعدام أود أن أجد من أتحدث معه لكن
هيهات فأنا ما زلت أتابع وحدى فحص الأحراز ، بعيدا عمن
يمكن أن يسمع لى ، فى كل صباح كان الدكتور وكيل الوزارة
يذكرنى : لا تنس يوم السبت ، قبل الساعة السابعة تكون
فى السجن ، وهل كان يمكن أن أنسى ، أنى سأكون عضوا
بلجنة تنفيذ الحكم بالاعدام على شخص ما ، لم أعرف بعد
تهمته ، كل ما أعرفه أنه لا يجب أن يكون حيا عندما تدق
الساعة الثامنة من صباح يوم السبت القادم ، وأن
الأداة العقابية للمجتمع ذراعه الباطشة سيجتمع ممثلون عنها
ليزهقوا أنفاس فرد خرج على الناموس ، النيابة والطب
الشرعى والداخلية ، وذراع اللجنة ، الجلاد ، أو من درج
العرف على تسميته عشماوى ، أيا كان اسمه ، فى كل مرة
أظل أرقا لليال ثلاث قبل الاعدام ، كم كانت فرصة المجنى
عليه فى الاحتياط لعدم الوقوع فى قبضة هذا القاتل ، وكم
كانت فرصته متاحة للنجاة ، وكم هى الآن فرصة هذا القاتل
فى أن يفلت ، بعد أن تمت الخطوات الأخيرة لترتيبات

الاجهاز عليه ، توقيع رئيس الجمهورية ، تحديد الموعد ، تشكيل اللجنة ، وينتابنى الاحساس بالحصار ، وأرى قدرا اغريقيا لا مهرب منه ما زال يصارع عدم تحدد هيسنبرج ، ويعلن انتصاره عند تشكيل اللجنة ، فرغم كل روايات الصحف والأفلام لم يفلت شخص قط من الاعدام عند انتهاء الخطوات الاجرائية . وبعد بدء العد التنازلى للزمن حسب دقات الزمت الاغريقى .

وفى ليلة تنفيذ الحكم المثبت فى هذه الورقة جلست على حافة الفراش ، أنفاسى ثقيلة ، أسحب الشهيق فى مشقة وأدفع الزفير فى جهة ، والوقت يجرجر الدقائق كالجثث ، والثوانى قطيع أفيال هرم يمضغ القات فى غابة الدهر الآسنة ، لم أنم دقيقة منذ يومين ، ومن وقت لآخر ترفع زوجتى رأسها فى حذر حتى لا توقظ طفلينا وتتحدث من بين أنفاسها المضطربة قائلة : لا تضطرب .. خذ قسطا من النوم .. أنت لم تنم ولم تأكل منذ أمس ، ألا يستحق أن يجنى ما قدمت يداه ، أليس لنا فى القصاص حياة ، ألم يزهق روحا بدوره ، وهل رحمها عندما استنجدت ، ألم يجثم على القتيل طاعنا ويعيد الطعن حتى تأكد من انقطاع أنفاسه المتحشرجة وأن كفاحه من أجل الحياة قد صار ضربا من العبث ، ألا يستحق الاعدام من قام وحده باصدار وتنفيذ

حكما خاصا بالاعدام ٠
لكنها هى الأخرى لم تنم ، بل ان مجرد احضارها طفلينا من غرفتهما واصرارها على نومنا الجماعى فى غرفة واحدة دليل على اضطراب شديد وخوف يتسرب اليها من أزمنة سحيقة قبل التاريخ ٠
لم يغمض لى جفن ، كأننى أحشو عيناى رملا فى الأيام الثلاثة الماضية واسكب فى مقلتى دما ، احسست بالموت يخيم على الكون ، ورأيت عميقا بداخلى انسان بدائى فزع ، انسان تعرض آلاف السنين للخطر فلم يعد فى مقدوره النوم ٠
رفعت زوجتى رأسها مرة أخرى وقالت : هل صحيح أن القتيل يكون عضوا فى لجنة تنفيذ الحكم ؟ أقصد يقولون أن روحه تكون حاضرة ٠
قلت لها : إعتقد انه يكون حاضرا فى أنفاسنا وفى أنفاس المحكوم عليه ، فجميعنا نستحضر واقعة القتل فى أذهاننا ونحيلها أبدا ، ونستحضر روح القتيل حتى يمكن أن نزهق روح القاتل ، وحتى نعود لمنازلنا فيمكننا النوم ، وحتى يمكن أن ننسى انسانا علقناه من عنقه حتى مات ٠
قالت لى : أنت غير مقتنع بما ستفعله بعد ساعات ثلاث ٠
قلت : لا شأن لاقتناعى بما سأفعله ، اننى أفقد انسانيتى واتحول الى أداة فى يد المجتمع ، يبطش بها عدلا أم ظلما ،

فلست أنا من أصدر الحكم أو أضع الحيثيات ، أنا وباقى أفراد اللجنة أداة بشرية شديدة القسوة صممت لازهاق الانفاس وليس لمناقشة حيثيات الحكم ٠

قالت : لا أقصد هذه الحالة خاصة ، ولكنى أقصد الاعدام عامة ٠

قلت : ما زلت أعتقد أن الجريمة اما نتيجة خلل اجتماعى أو اقتصادى فيكون الحل اعادة النظر فى البناء الاجتماعى واما خلل شخصى يستوجب التبكير باكتشافه ودرء خطره وعلاجه ٠

استيقظ ياسر وبكى ، فزعت ، احتضنته ، لم أكمل بعد حديثى ، ولا أعرف لماذا مددت يدى أتحسس مروان واطمأن الى انتظام انفاسه وأنه ما زال حيا ، فى ليلة تنفيذ الاعدام نصبح أسرة فزعة تسكن كهفا من خوف ، وأشعر أن رعبى وأفكارى السوداء تفرز سما خانقا يكاد يقتل طفلى ، فأتحسسهما لأطمأن عليهما ، وأتأكد من انتظام أنفاسهما ٠ أشعر الآن باقتراب الموعد فأتعجله حتى لا أظل أسيره أبدا وأن كنت اعلم أننى سأظل أسيره لفترة طويلة ، قد تكون فى الحقيقة أبدا ٠

حضر السائق لاصطحابى فى الخامسة والنصف ، ارتديت ملابس ثقيلة رغم أن الجو لم يكن باردا ، لكن فى ذاك اليوم ينبع البرد من الداخل ، الآن تتجمع الطيور السوداء شاربة الدم ، وتصرخ فى طلب الثأر وتحوم فوق سجن

الاستئناف حتى تكون مظلة تغطيه ، لابد وأن المحكوم عليه يراها من حجرته الآن لكنه لن يعلم من من بين الاثنى عشر الذين يرتدون ثياب الاعدام الحمراء سيكون هو المقصود في تلك المرة ، لن يعلم حتى نطرق بابه ٠
في السادسة تماما كنت أول عضو يصل الى السجن ، الفيت طبيب السجن قلقا ، مضطربا ، لم يرقد لحظة طول الليل ، سألنى وهو يعد كوبين من الشاى عن الاسم ، من سيكون عليه الدور فى هذه المرة ، لم يكن الاسم يعنى كثيرا لى ، فلم أره قبلا او اسمع عنه ، لكن طبيب السجن كان يعاشره لثلاث سنين ، يعالجه ان تعب أو مرض ، فالمحكوم عليه لا بد وأن يكون فى أفضل صحة لحظة تنفيذ الحكم ، بل حدث في بعض الأحيان أن تأجل تنفيذ الحكم لمرض حاد ألمّ بالمحكوم عليه بالاعدام ، لذا فطبيب السجن يعطى أفضل ما عنده للمحكوم عليهم بالاعدام ، الاسم يعنى لديه شخصا وضع المسماع على صدره وانصت لدقات قلبه وأصوات تنفسه واستمع لشكواه ورقه عنه ، ثلاث سنوات ، حين ذكرت الاسم اضطرب ، كشف عن الانسان داخله ، قال : اطيب المحكوم عليهم وأغلبهم ، قتل فى لحظة طيش وبعد تحريض رفاق السوء قبض عليه خلال يومين من ارتكابه الجريمة ، له هوايات فنية والوحيد فيهم الذى تشعر أن بداخله انسان تشفق عليه

أو انه كان ـ لولا ما كان ـ سيصبح شيئا ، حتى لو كان مجرد انسان طيب يعتمد عليه .

طالبني ضابط أن أحكى بعض عجائب مما رأيت بعملي في الطب الشرعي ، أحسست أنه يطارد قلقه ويخفيه بهذه الطريقة .

وبدأنا كتابة شهادات الوفاة والصور السبعة للاعدام لمن ما زال نائما بالطابق الثاني داخل السجن ، ألم يشعر بعد بحركة في السجن ، أبواب تفتح وتغلق ، حرس ، نشاط قبل الموعد المعتاد بساعتين .

سأل أحد الجنود : بئر الاعدام ممتلىء بالماء ، رشح أرضى ، هل نبدأ في تفريغه ؟

سأله الضابط : كم سيستغرق ذلك ؟

ـ حوالى نصف ساعة .

حدثني الضابط كأنما يسأل نفسه المشورة : لا يمكن بالطبع أن نرجىء ذلك الى اللحظات الاخيرة ، فهذا سيعطل أعمال اللجنة وسيعيد محلا للانتقاد ، كما لا يمكن أن نبدأ في نزحه الآن والا فان صوت الماء والدلو المستخدم قد يصل الى اسماع المحكوم عليهم فيضطربون ، جاء طبيب السجن ليحل الورطة بورطة اكبر ، قال : افعل ذلك الآن ، فقد عرف ، لا أعرف كيف عرف ولكني سمعتهم يودعونه من ثقوب الزنازين وهو الآن يودعهم .

ــ كيف عرف ؟

ــ قلت لك لا أعرف ، ربما أحس ٠

وصل باقى أعضاء اللجنة ، ممثل النيابة ورئيس اللجنة ٠٠ مفتش الداخلية ٠٠ المأمور ، توجهنا لمعاينة المكان والاطمئنان الى أن كل شىء قد اكتمل فى انتظار اللحظة القاتلة ، عشماوى بثيابه السوداء ، ونائبه الذى يتدرب على أعماله يساعده ، قام بتثبيت الحبل بأعلى العارضة ، حبل ثمين يتم استيراده وانتاجه في اماكن محددة من العالم وتبيعه بسعر مرتفع لمن يطلبه من البلدان ، أهم شروط الحبل أن لا يتمدد مليمترا واحدا ، مهما كان الجذب عليه حتى يكون التوقف المفاجىء للجسم الساقط سببا حتميا لانخلاع فقرات عنقه وتمزيقها للحبل الشوكى ، وأن تكون خيته سريعة الانزلاق فى نعومة محكمة على العنق الذى أعدت للقبض عليه ، أعدّ عشماوى الطبلية وجربها ثم ثبت أمان الذراع حتى لا يفلت نتيجة حركة خاطئة فيتم تعليق المحكوم عليه قبل لحظة الاشارة المتفق عليها من اللجنة ٠

بصق نائب عشماوى بيده وبلل الخية ، سأله مفتش الداخلية ان كانت لا توجد طريقة سوى البصق ، ألا يصلح الماء العادى مثلا ، اجاب عشماوى بالنفى ، فالمخاط الموجود باللعاب يجعل الخية أكثر انزلاقا واحكاما ولا يصلح لهذا

الماء العادى ، الآن أشار عشماوى باستعداده التام لأداء المهمة ، خرجنا .. قابلنا رجل الدين وأرسلنا فى طلب المحكوم عليه ، تبادل أعضاء اللجنة بعض الكلمات ، رئيس النيابة ومفتش الداخلية يحضران الاعدام لأول مرة ويبدون أقل تأثرا ممن حضروا مرات عدة ، أو ربما كان هذا ما يبدو على سطحيهما الخارجى ، سمعت تمتمة حوار كان يؤكد أحد أطرافه أن ازهاق روح للقصاص أمر من أمور الجلالة ، يتولاه الله وحده ، وان لحظة الاعدام لحظة فى حضرة الجلالة لها رهبتها كأنها ساعة الحساب ، وأن اللجنة وعشماوى وعزرائيل ليسوا الا أدوات فى يد الخالق ، لا تفعل شيئا ويفعل هو ، وأننا بعد دقيقة سنكون مصطفين فى حضرته ، ارتجف المتحدث ، ووصل المحكوم عليه .. شاب نحيف البنية فى حوالى الخامسة والعشرين فى العمر ، بدا وجهه هائما كأنما يرانا ولا يرانا ، جميل الملامح .. مصفف الشعر ، يرتدى بدلة الاعدام الحمراء وشبشبا ، الأرض باردة .. ارتجف .. فارتجفت وسرت فى بدنى رعدة ، لا أعلم ان كان يرتعد بردا أم خوفا لكن أعلم انى لم أكن أشعر بالبرودة حين ارتجفت ، تحدث اليه رجل الدين فبدا تائها ولم يردد خلفه ما طلب منه ترديده ، فلكزه فى كتفه منبها ، كان ينظر الينا او الى لا شىء ، ويقبله بين لحظة وأخرى بعض حراسه من الجنود وصف الضباط ، وجد عشماوى متباعدا عنه فسأله ألا تريد أن

تقبلني ، وتبادلا قبلات عدة ، قرأ أحد الضباط عليه الحكم ، تقدم عشماوى فربط يديه وساعديه خلفا بسير جلدى خـــاص ، وتأبط ونائبه ذراعيه ودخلنا جميعا الى غرفة الاعدام . أوقفـــه عشماوى على الطبلية ، أحاط ساقيه بسير جلدى خاص ، ثبت حول رقبته الخية وأحكمها حتى ظننته سيزهق انفاســـه دون انتظار لانفتاح الطبلية ، ووضع على رأسه قناع الاعـــــدام الأسود ، سألناه ان كان يريد شيئا فطلب رفع القناع الاسود ، فرفض طلبه ، نظر عشماوى منتظرا الاشارة الأخيرة ، فتـــح أمان ذراع الطبلية ، عندها علمت اننى لن أشعر بعدها أبدا بالأمان ، تلقى عشماوى الاشارة المنتظرة ، جـــذب ذراع الطبلية لتنفتح متخلية عن قدمى المحكوم عليه ، وليهـــوى جسمه ما يقرب من مترين ، سمعنا شهقة مكتومة بترتها صدمة جذب الحبل على الرقبة وتأرجح الجسم لحظة واقتربت منه فقـد جاء دورى ، وينتظرون الآن منى أن أخبرهم بتمام المأموريـــة وبأن المذكور زهقت انفاسه وتوقف نبضه ، نظرت الى الجسـد المعلق فى بئر الاعدام ، تبدو عضلات الرقبة مشدودة شديدة التوتر والنفور ، كأن كل ليفة عضلية تود أن تشق الجلـــد وتهرب من المصير المحتوم ، وشاهدت تقلصات عضلية بطيئـــة وشديدة شملت جسمه كله ، ينثنى قليلا وينفرد ، ثم يتقلـــص الجسم بشدة ويخف تقلصه لحظة لكن دون اقتراب من احتمـــال

الارتخاء ، ولولا الأربطة الجلدية لانتفضت هذه الأطــراف المشدودة ولتشنجت ، سألوني عن النبض فاستمهلتهم حـتى يتوقف الجسم عن الحركة ثواني ، خيل الى انها أحقـــاب سحيقة ، هدأت حركة الجسم ، هبط عشماوى للبئر وهبطت خلفه درجات على السلم الحديدى الزلق ، فك قيد يديــه وقدم الى واحدة لأتحسس نبضها ودفع الجسم تجاهى حـتى تقترب منى اليد ، قبضت على المعصم الدافىء المحتقــن ، ولا أعلم ان كنت تحسست نبضه أم نبضى أنا ، وبعد ثـــلاث دقائق أعلنت أن النبض توقف وأن المرحوم قد صار فى عـــداد الأموات ، تركناه معلقا نصف ساعة كما تقضى الطقوس بذلــك ، وكتبنا التقرير اللازم وأثبت رئيس النيابة فى محضره ما حدث حتى تقفل القضية ، شربنا الشاى فى مكتب المأمور وتبادلنا حديثا متقطعا وحاول كل منا أن يبدو رابط الجأش ، وتفرقنـــا ، وذهبت الى المنزل لأجد زوجتى تقف مضطربة فى الشرفـــة تنتظرنى ، وعندما صعدت سألتنى بعينيها فقلت لهـــا : أعدمناه .. فانفجرت باكية .

— — —

(٨)

تراقص شريط من الشاش فى ركن الغرفة ، مطالبا اياى أن لا أنساه ، وهل يمكن أن أنساك ، كان صاحبك خفيف الظل يضحك رغم اصاباته المتعددة والتى أودت بحياته بعد عامين من العذاب المتصل ، عندما رأيت حرز الملابس لأول مرة وفحصت هذا الشريط الذى يتراقص متأثرا بتيار هواء رفيع لا أدرى مصدره ، أعجبنى وقررت أن أوصى بضمه للمتحف ، فلفه مزدوجا ولثلاث مرات حول الرأس سمح لمقذوف واحد أن يحدث به اثنى عشر ثقبا ، ستة للدخول ومثلهم للخروج ، علاوة على وجود مسحة رصاصية حول ثقبى الدخول فى اللفة الخارجية وعدم وجودها بباقى اللفات ، وكذا وجود فتات عظمى دقيق تناثر من القبوة وتشابك بأنسجة الشريط ملتصقا به بأجزاء من مادة المخ التى توزعت حول فتحات الخروج حتى تشبعت بها وبالدماء ، وعندما علمت أن صاحب الملابس والحرز مصاب وليس محتضر ترامت الى من الذاكرة أصداء دهشتى الأولى حين قرأت " لسيدنى سميث " فى كتاب تايلور عن الجنتلمان الانجليزى الذى أطلق النار على رأسه منتحرا فى غرفته الخاصة فاخترق المقذوف الذقن واللسان وسقف الحلق وقاعدة الجمجمة والفص الصدغى والجبهى من المخ وقبوة

الجمجمة محدثا بها ثقبا منبرى الحواف للخارج بقطر بوصة وربع واستقر فى سقف الغرفة كما استقر معه موزعا بالسقف أجزاءا متطايرة من المخ وفتاتا من عظام قبوة الجمجمة ، وانتظر الرجل المهذب الموت فى أدب فلم يحضر زهاء ساعتين ، فنهض حاملا مظلته وخرج الى الحديقة ليتمشى قليلا فى انتظار الموت ، وبعد أن قطع أقل من مائتى ياردة ولم يحضر الموت وكان قد مر ما يقرب من ثلاث ساعات والرجل الفاضل غير ساخط على الموت الذى تأخر رغم تركه لحطام مخه متناثرا بسقف غرفته ، قرر الرجل أن يعود لينتظره بالداخل ، فعاد الى منزله وطرق الباب ففتحت له الخادمة فبادلها حديثا مهذبا لا يخلو من الرزانة والتعقل وأدلى ببعض الملاحظات التى لا تفتقر الى الذكاء ثم ناولها معطفه ومظلته وصعد السلم بتمهل ، وسقط ميتا ، وعادت هذه الذكرى الى ذهنى عندما دخل الى مبتسما وما يقرب من ربع مساحة عظام قبوة جمجمته مفقود بفعل الاصابة ، أين تناثر فتات هذا العظم يا ترى ، وما حجم مادة المخ التى اصطحبها معه ، لقد مر المقذوف ميزابيا حاملا معه جزء كبير من عظام القبوة وجزء آخر لا أعرف حجمه من مادة المخ ، بعد خطوة واحدة الى داخل الغرفة أدركت من خطوته الدائرية ووضع يده ورجله اليمنى أنه يعانى من شلل نصفى بهما ، ومن فحص أوراقه

الطبية وموضع اصابته تبينت أن الشلل ناشئ عن اصابته ، كما تبينت أنه قد تخلف لديه نوبات صرع شديدة تبدو آثارها في الاصابات المتعددة التي حدثت له أثر السقوط والآثار الواضحة لعض اللسان أثناء النوبة .

قبل أن أكشف عليه أو أحدثه بادرني بحديث خرج متثاقلا ومتعثر الكلمات ومتباطئا من فمه : يا دكتور .. هل " أبظ " عيني بأصبعي ؟

ألجمتني الدهشة فلم أرد ، أعاد عليّ السؤال فخشيت أن يفعلها فأجبت بالنفي ، فعاد يسألني : افان فعلت .. أأكون عاقلا ؟ ! .

اجبته : لا أظن .

قال : أخي فعلها .. " بظ" عينه بأصبعه ، ضربني في رأسي بالرصاص انظر الى جسمي .

وكشف عن عنقه وصدره بيده السليمة وعاونته زوجته الجميلة في الكشف عن ظهره وساقيه ، كانت توجد آثار التئامية متعددة خطية تتفق واصابات طعنية أو قطعية ، سألته : ما هذا ؟

أجاب : وهذا ما فعلته اخواتي البنات الثلاث بالمناجل الحديدية ، وقبل أن أعاود سؤاله نظرت في مذكرة النيابة لأجد الأمر كما قال ، قدمت له مقعدا ووقفت زوجته الى جواره بملابسها الريفية الفضفاضة ، واستمر يتحدث متثاقلا ، يجرجر

الكلمات ويفردها أمامى بجهد من أثر الاصابة .
قال : لم يخافون منى يا دكتور ، ليس لى سوى ولد صغير عاجز وبنت مريضة بعقلها ، أجرى عليهم ولا أملك سوى نصف فدان أزرعه بذراعى ، أبى تزوج من أخرى بعد أن انجبنى وشقيق لى ، وأنجب من الأخرى هذا المعتدى واخواته الثلاث ، فى مشاجرة صغيرة تحدث كثيرا بين الأخوة . غلب شقيقى هذا الجانى ، فتربص له فى اليوم التالى وقتله ، وحكمت عليه المحكمة بالمؤبد ، لكنه نال عفوا وخرج بعد خمسة عشر سنة فقط ، هذا العام ، القتيل شقيقى والقاتل اخى ، وللمقتول ولدين ، وحتى نصفى النفوس اصطحبت أخى الى أبناء القتيل وقلت لهم هذا عمكم ، مثل أبوكم ، وما فات مات ، والظفر لا يخرج من اللحم ، والدم لا يصير ماء ، وكفى خسارة وبكاء على الفائت والماضى قد مضى ، وظللت بهم حتى قبلوا دخوله عليهم ، وتصافت النفوس لكن يا دكتور .. خواته الثلاث ، اخواتى ايضا لكنهم من أبى فقط ، لكنهم خواتى لا أنكر ، أمهم كانت شرسة وصاروا هم أشرس منها ، تجاوزت اصغرهن الثلاثين ولم تتزوج أيهن بعد ، الرجال خشون بأسهن ، كل واحدة كالرجل ، " بالنبوت " والبلطة حديثهن ، من يعى أمرهن يتجنب أن يلقاهم فى طريق " خياشيمهم " يطلع منها نار ، قلن له كذبا أنى أنوى به

غدرا ، وأني أنوى أخذ ثأر أخي الشقيق ، وحرضته على قتلى حتى يمتنع على أن أفعل ما يدعون به ، وهو يا دكتور مخه صغير ، رأسه مستطيلة وضيقة كالبرج ومن يومه وهو غبي ، أطاعهن وتربص معهن لي وكان من أمري وأمرهم ما ترى •

وانصرف مستندا الى زوجته حتى الباب بعد كشفي عليه ثم توقف فجأة واستدار متحدثا الي وهو يبتسم في خبث وقال : لم تثبت اصابة عيني يا دكتور • أجبته : ما بك من اصابات حقيقية يكفي لنسبة عاهة تصل الى مائة في المائة ، فما الدافع للزج باصابات أحدثها بك المرض لا أخيك ، ما بعينك " جلوكوما " قديمة وأنت تعلم هذا فلا داعي لخداعي •

ضحك وقال : الطبيب الشرعي جن مصور ، طيب يا دكتور أريد منك خدمة •

قلت : اطلب ما شئت •

قال : قل لزوجتي أنني يجب أن آكل نصف كيلو لحم وحدى لا أعطى منه أحدا ثلاث مرات في الاسبوع ، غير البيض والطيور ، وقل لها أن المصاب كالطفل الصغير يجوع كل دقيقة •

ابتسمت ونظرت الى زوجته التي أدارت وجهها خجلا ودفعته في رفق ممازحة وانصرفا سويا •

رأيت هذه الزوجة ثانية بعد عامين ، معفرة بالتراب مجهدة حافية القدمين باكية ، كانت تنتظر الى بعد التشريح ، كأنم

ما زالت تنتظر خبرا طيبا محتملا أو تظن أني سأقول لها أنه لم يكن ميتا وانما مغمى عليه ، وعندما تجنبت النظر اليها لطمت وصارت كتلة من السواد والتراب والصراخ والبكاء ، وأحاطت بها النسوة فاختفت .

وكتبت الى النيابة أن وفاة المذكور اصابية ناشئة عن خراج بالمخ ، وهو أحد المضاعفات المعروفة والخطيرة لاصابة المذكور بالمخ والجمجمة ، فأعيد القبض على صاحب الرأس البرجية واخواته "الأمازونات" قاتلى أخويهم ، ما زال الشريط الشاشي يتراقص كأنما يسألني عما اذا كان لنا حديث آخر عن الثأر والخوف من الثأر والقتل خوفا من القتل ، فقلت ربما ، لكن سؤال القتيل الأول ما زال يطن في أذني : "هل أبظ عيني بأصبعي" ؟ ! .

ـ ـ ـ

(٩)

رأيته مرتين ، ورأيتك مرات ، وفى كل مرة أذكره يجتاحنى حزن يصعد من أعماقى كدوامة حنظل ، ويتباطأ قلبى كأنما يضخ مرارة واكتئابا ، وكلما رأيتك تذكرته ، لم يطاوعنى عقلى على أن أصفك بعد ، فأنت الموت تجسد والحزن صار عالما والكآبة صارت نصلا ، سكين معدنى ذو مقبض من ذات المعدن ، ونصل ذو حافة واحدة المفروض أنها حادة ولكنها مثلومة فاقدة الحدة ، كأنما تحولت الى آلة راضة ، لا شك عندى أنه ذبح بها نفسه ، ففى المرة الأولى رأيته غريقا فى بئر الحزن وخشيت أن ينتحر ونصحته بالتوجه الى طبيب نفسى لمساعدته ، ولكن من أدرانى أن نصيحتى ربما أتت بنتيجة عكسية ، ربما ظن أنى غير واثق فى قواه العقلية فاهتزت آخر دعائم ثقته بنفسه ، حاولت طمأنته ولا أعرف ان كنت قد نجحت ، سأفحصك أيها السكين المخضب بالدماء ، دم ما زال يحتفظ بحرارته وبصدقه رغم مرور أيام على جفافه ، دم غزير تناثر من الجرح الذبحى بالعنق فألقى برذاذ على أعلى ملابسه وعلى المرآة التى وضعها أمامه حتى يحكم عملية الذبح ٠٠ بدأ بداية عميقة فى عزم ، وغاص السكين المثلوم الحافة فى تجاعيد العنق ، وشدد يده اليمنى جاذبا اياه

ناحيتها ففصل العظم اللامى عن الغضروف الدرقى قاطعا العضلات والأربطة بينهما ، تحشرجت أنفاسه وأنهكه صراخ الألم وارتعدت يده وغامت عيناه فلم يعد يرى شيئا وغطى الرذاذ الدموى مرآته وعالمه ، وهنت يده فتحول الذبح الى جرح سطحى ثم الى تذيل ثم سقطت يده بجواره وسقط بجوارها لكنه لم يمت ، فلم يقطع أى وعاء دموى رئيسى يمكن أن يعجل بموته ، وكأن رحلة عذابه فى هذا العالم لا تريد أن تنتهى ، ضاقت أنفاسى وأنا أتذكر لحظاته الأخيرة بل أيامه الأخيرة وكأنى اسحب أنفاس من فراغ ميت عمقه الف قدم تغلق نهايته رمال العالم ، اختنقت وعادت الى الذاكرة لحظة رأيته لأول مرة ، دخل علىّ الحجرة كهل جاوز الستين من عمره فى ملابس مهملة وان كانت نظيفة ، من أقمشة رخيصة وان كانت متناسبة الألوان ، يلبس فى قدميه صندلا خشنا رخيصا تبدو منه أصابعه متربة ، نظرت الى وجهه الملىء بالغضون وهالنى غور عينيه وانطفاء لمعانهما والهالات السوداء المحيطة بهما ، أنّى لهذا الوجه أن لا ينتحر ، يحمل هموم العالم والعالم ذاته على كتفيه ورأسه فأحناه ، لم يكن أطلسى الأسطورى وانما عجوز هدّه الدهر وحطمته المعاناة ، تكوى ملامحه نيران خفية ، لها ذلال دام زمانا وعبودية لم يريحه الزمن منها يوم واحد .

استند الى عصا قديمة كأنما اعتاد الاستناد اليها منذ أن كان طفلا ، قبض عليها ليختفى خلفها ونظر فى عينى باحثا عما يطمأنه ويذهب روعه فابتسمت فازدادت ريبته ، طالبته بالجلوس ودعوته الى الشاى فشكرنى وظل صامتا ، حاولت جره للحديث فسألته عن اسمه وعمره وعنوانه وما الى ذلك فكان يجيب باقتضاب ، حاولت أن أطيل من عباراته فاستجاب تدريجيا وبتردد ، وأمكننى اغتصاب ابتسامة منه عندما سألته :

— قل لى ما رأيك فى الأمثال الشعبية ؟

قال : طيبة .

قلت : فما الذى يقصدونه عندما يقولون " عصفور فى اليد أفضل من عشرة على الشجرة " .

ابتسم قائلا : لقد بدأت تفحصنى يا دكتور ، سأتعاون معك ، فما ذنبك حتى أجعل مهمتك صعبة ، ان المثل الذى تقوله يرددونه هنا بشكل مختلف ، انهم يقولون " ظرظور فى الطاجن ولا عشرة فارين " ، لم يقتلنى يا دكتور الا مثل هذا المثل فأنا طيلة عمرى واقعى ، أقبض بيدى على عصفور هزيل وأرفض التطلع الى العالم أجمع فوق الأشجار استبعدتنى لقمة العيش بلا نهاية ، صار قلبى نعشا ، وكنت أسأل نفسى فى كل يوم عما اذا كان مقدرا لى أن أظل

أسعى خلف ملء المعدة طيلة العمر ، ألن أحس بالشبع أبدا ، بالأمان أبدا ، ألن أنظر الى المستقبل أبدا ، ألن أستريح أبدا ، كنت أدب في الأرض كدودة الطين ، يحيط بها الطين من كل جانب فلا ترى سواه ، تأكل طينا وتبتلع طينا وتتمخض فتفرز طينا ، ذهبت العينان فلا حاجة لهما في الأعماق الموحلة ، وفي المرة الأولى التي رأت النور ساطعا فجأة وجدت نفسها تنتزع من أمنها الطيني الكاذب لتدق بالكفين وتذهب قطعا كطعم للسمك ، خفت من استرساله وما زال أمامي غيره لفحصهم فقاطعته سائلا :

ـ اتعرف أين نحن الآن ؟

أجاب : نعم أعرف .. نحن في قسم الطب الشرعي .

قلت : فما سبب استدعائك الينا ؟

اجاب في مرارة صبغت كلماته : للكشف على قواى العقلية بعد أن اتهمني ابني الوحيد بالسفه والغفلة وطالب بالحجر على معاشي التافه .

صمت قليلا ثم استطرد : لقد أعطيته عمري ، غصت في الطين كي يرى هو النور صرت طعما ليصير صيادا ، حرمت نفسي من حسن الملبس حتى يتأنق ، ذقت العلقم حتى يذوق الشهد ، رضيت بالهوان ليحيا في عزة ، بليت الصنادل في قدمي ليركب هو السيارة ، أتعلم يا دكتور ،

لقد تركت له شقتي ليتزوج فيها بعد موت أمه ، زوجتي الأصيلة التي كافحت معي وشربت معي كأس المذلة حتى الثمالة ثمالتنا نحن ، قلت لنفسي تكفيك أيها العجوز غرفة صغيرة بأعلى سطح الطابق السادس ، ويمكن لقلبك المريض أن يتحمل الصعود ان أنت استرحت في كل طابق ، دع له الشقة ليتزوج فيها ولتكن هديتك الأخيرة له قبل أن تموت ، لكن للأسف يا دكتور لم أمت ، امتد بي العمر سنوات بعدها عصرت نفسي فيها عصرا وأمكنني تدبير ثمن سيارة أهديتها له ، لم يكن معاشي وحده يكفي لأقدم له هذه الهدية فتناسيت أني كنت موظفا لا يغادر المكتب وحملت على كتفي البطاطين والسجاجيد ، وبعت واشتريت ، وعندما تراكم من المال ما يكفي ليريحني من الدوران فضلت أن أعود الى حجرتي وأجمع أوراقي المالية وأحولها الى سيارة يركبها ، لم أفسر له كيف اشتريتها فظن معاشي كبيرا وسعى للحجر عليّ حتى يقبضه مباشرة لا عن طريقي ، ليس لي غيره يا دكتور ، ما زلت أحبه لكنني لا أستطيع أن أغفر له ، لا أقدر أن أكرهه ولا أستسيغ رؤيته مرة أخرى ، لن أشكوه ولن أسامحه ، سأصارحك يا دكتور حتى لو ظننتني مجنونا فقد صار كل شيء يستوى مع كل شيء ، انى أنظر خلفي فأرى سرابا ، كنت أعدو قابضا على العبث ، كنت لا شيء يجرى في العدم ، حاولت أن أصبح شيئا فصرت

كما كنت هباء ، واسأل نفسى عن جدوى حياتى هذه السنين الطويلة ، وعن معنى طريق الشوك والدموع والمرارة الذى تقلبت على لظاه ، وعما بددت فيه عمرى وعمر من ماتت وتركتنى وحيدا ، وأتمنى لو كنت مت منذ زمن ، لو دهسنى قطار او اختنقت تحت أنقاض مسكن ، وأسأل نفسى لو كنت الآن فى العشرين من عمرى وعرض على أن اختار وأنا أعرف المستقبل فماذا كنت أفعل ، أغلب الظن أننى كنت سأنتحر كفقاعة صابون تنفجر ذاتيا بدلا من أن يفقأها الآخرون ، أتظن أنى مريض يا دكتور عندما أتفوه بمثل هذه العبارات ؟
أجبته : أظن أنك فى حاجة الى مساعدة من طبيب نفسى ، وأرجو أن لا يحملك هذا على الظن بأنى أتفق مع ابنك ، ولكنها نصيحة أقدمها اليك حرصا منى على أن لا يهلكك الحزن الذى يعتبر موقفا طبيعيا فى مثل أزمتك .
عاد الى الحديث : أزمتى هذه يا دكتور ولدت معى ، وكان الحزن يهلكنى فى اليوم ألف مرة ولكنى كنت أتعلق بخيوط واهية ظننتها الأمل فى المستقبل ، وها هو ذا المستقبل قد صار حاضرا فأين ما كنت آمل فيه ، الأمل يا دكتور أكذوبة كبرى ، أفيون وقات نمضغه بينما يمضغنا الزمن ، أوهام يا دكتور . نرتديها ونتحصن بها من الردى وهو كامن كالمرض بالداخل ، الأمل فى حقيقة الأمر يأس مقنع ،

طاحونة لا جدوى تصدر ضجيجا ضخما فينام الناس مبتسمون ويحتمون فيها من الكوابيس بينما الأشباح تركبهم ليلا ونهارا ، اننا نحيا يا دكتور فى مدينة سوداء سوداء ، ندق بأيدينا على ما نتوهمه أبوابا فاذا هى جدران قبورنا ، عيوننا تغرز ليلا وظلاما منذ لحظة الميلاد ، الموت تحول من الحالة المقعدة الى الحالة البسيطة ، تفكك المادة الحية ، انهيار الكائن العضوى ، هذه الروابط التى تخلق وهم الحياة هى ما نسميه أملا ، فان مات الأمل عدنا الى الجوامد ، اتحدنا بالأبد فحصلنا على الأمن . ولم نعد نخشى الأمس أو المستقبل واستوت الأشياء فلم نعد نفقدها أو نفتقدها ، الموت ها هنا حياة ، أمان ، والمنتحر يقفز الى الخلود بعودته الى عناصره البسيطة ، لا تحدثنى عن العقل ورقى المادة العضوية المعقدة ، فما الذى فعلته لى سوى الألم والمعاناة واليأس والضياع و ... ، ان كان الوعى ألما وادراكا لوهم الأمل ووعيا بالعبث فانى اتخلى عنه راضيا ، أخلعه بوعى كامل ، ويستوى عندى أن أحرق أو أدفن ، لن يذكرنى أحد ، ولن أسبب ألما لأحد ولكنى سأكف عن التألم بلا جدوى .

سكت لفترة ثم استطرد : أرى فى عينيك حزنا من أجلى ، تخفف عنى نظراتك وحديثى اليك لكنى أعلم أنه وهم التواصل

الانساني ، فبعد قليل ستتحكم فيك ألاعيب الحيـــــاة،
وستطمأن نفسك وتوهمها أنك ستكون أفضل حظا مـــنى ، لا
ألومك ، فلولا هذه الطمأنينة الكاذبة لانتحر الجميـــــع،
لكنى سأعود الى حجرتى الحقيرة وأبكى حتى يتسلخ خـــدى
وتصبح دموعى فى صلابة الصخر ثم أسمح للعالم أن يجتاحنى
ويأخذ منى ما انتزعته منه لحياة طالت حتى ظننتها يوم كامـل
بينما هى لحظة انفقأت وهمسة خفتت وضياع قصير تفكـــك ،
ستحمى نفسك وتطلق على ما أقول فلسفة كاذبة وأوهام لكـــنى
أشعر بكل كلمة كالنار فى حلقى ، تشق زورى وتنفجر بيـــن
شفتى ، لم أكن أنوى التحدث اليك ولكنى انفجرت ، كنـــت
أنوى أن أقول لك أنى مجنون والدليل حياتى التى سقطـــت
كقطرة فى بحر العبث ، ولكن دعنى أسألك ، أين العاقـــل
الذى أمكنه أن يحمى حياته من تسلل العبث اليها ومـــــن
تخلل اللاجدوى وانعدام المعنى لحلقاتها ، أتعـــــرف
يا دكتور انى كنت اكتب ، لم أنشر قط .. لكنى كنت أكتب ،
وعندما أعود الى ما كتبت يهولنى حجم الأكاذيب التى غطيت
بها عينىّ ، كنت أتحدث عن بعث الحقيقة وعن اللقاء الخالص
بالنفس فى الآخرين وعن الشعور بالألفة وقبول الآخريـــــن ،
وخطوط الحياة الواضحة وسيادة العقل ، وفجأة رأيـــــت
الحقيقة الوحيدة ، كشف عنها ابنى فى لحظة قاتلة داميـــة ،

فضاع مني الطريق كما تذوب قطعة من الثلج تركت بالربع الخالي ، اختلطت العلامات الوهمية أمام نظرى الواهن واحتلت الأفق غمة ، أتعرف . . عندما ماتت زوجتي لاقيت لحظة أخرى قاتمة أضاءتها فكرة الانتحار ، ومن يومها أشعر كبندول ضخم ينتظم في حركة غير منتظمة اقترابا من الفكرة حتى أكاد أضعها موضع التنفيذ وابتعادا عنها حتى أكاد أنساها ، أتأرجح صعودا وهبوطا عند أفق الحياة كومضات كاذبة من ضوء صناعي ميت ، لم تعد اللحظات الكئيبة تمر أو تعبر بل صارت تقف أمامي صامتة . كالأقنعة الافريقية المفزعة ، كوابيس متداخلة وتلال حزن متراكبة في صحراء لم ترى قطرة ماء منذ بدء الخليقة ، نظرت لعيني في المرآة فلم أرى فيهما بريقا للحياة أو أقرأ في انسانيهما رغبة فيها ، ميتتان ككرتين باهتتين دفنتا بعد قراءة التعاويذ الملائمة في محجرين . أهيل عليهما السواد واحتلتهما ظلمة ، كنت أود لو كانت نهايتي تدريجية كدرجات من الظلام تتداخل حتى الاعتام الكامل لكن من أين لى الصبر حتى تأتي تلك اللحظات الباهتة الملامح ، تنهض نهايتي فجأة لتسد الطريق أمامى كمارد ، يسحقني بحذائه الثقيل كنملة صغيرة عمياء مشلولة الأطراف والارادة فأتشنج واهتز ذبيحا في لحظات قصيرة طويلة كومضة أبدية تذوب في العدم ولا تنتهي أبدا يا دكتور ،

ما تراه أمامك ليس سوى سراج خافت واهن الضوء تراقص أمامه الموت وهبت عليه رياح داكنة الحزن وآن له أن ينطفىء ، شمعة زاوية لم تضىء لأحد طريقا ولم تبصر فى حياتها القصيرة ضوءا آخر تبعث الآن بومضتها الأخيرة كرسالة يائسة الى حياة أخرى عبر الكون ، اننى أشعر بحضور الموت وتجسده ، يتردد فحيحه فى أذنى يسرى الى الداخل بغير عبور بالطبلة أو أعصاب السمع ، ظلة اللامحدود أراه بعيون داخلية داخلية بغير عدسة أو شبكية ، ينادينى ، لينتهى انفصالى الزائف عن العناصر الأولية ، للموت طعم مرير يا دكتور لكنى أصبحت أرى أن أى فشل هو موت محدود ، وأن الموت فشل غير محدود ، فشل لا نهائى الأبعاد ، وأنا بحكم هذا التعريف ميت من زمن ولم يفعل ابنى سوى أن تكرم علىّ بالكفن ، وذكرنى أن مقامى قد طال وانه من الخير لى أن أنصرف قبل أن أتعفن حيا ، لقد كففت عن السير فى الزمن ولا يرضينى أن يسير الزمن فىّ ، لقد كنت كالصدى المركز والمعبأ فى أنابيب الصبر والزمن ، انفتحت فجأة فتلاشيت ..

ظل يتحدث مدة طويلة ، أشار لى الحاجب فاستمهلته فهدأ من نفوس المنتظرين ، كنت أظن أنه يستريح اذا ما تحدث ، تكلم ساعتين ثم انصرف وبعد أسبوع عندما تلقيت اشارة النيابة بشأن جثته انتبهت بحدة الى اسمه ، وتوجهت فى السيارة

ساكنا ، لم أتبادل الحديث كعادتي مع من معي فاحترموا صمتي ، تذكرت كلماته فمزقتني كالسيوف وحين رأيته ممددا هالني أنه ما زال يرتدي قناع الحزن ، التقيت بالجراح المعالج فوصف لي أياما خمسة قضاها العجوز في عذاب حتى مات ، عندما وصل الى المستشفى لم يكن يحتمل التخدير فأجرى له شق جراحي بدون تخدير على القصبة الهوائية حتى يمكنه التنفس ، أشار لهم بأنه ذبح نفسه ضيقا وزهقا ، ولكن ابنه غضب وروى رواية مختلقة عن لص هاجم أبيه حتى يحتفظ بقيمة التأمين على الحياة الذي رصده والده لصالحه ، وأشار لأبيه منتهرا فأمن الأب على رواية ابنه وأضاف اليها بعض الاشارات ليؤكدها ، ضوعف الجرح بالتقيح وظهرت به بؤرات صديدية ، ومات الأب من الامتصاص التوكسيمي المضاعف للجرح ، ورجحت حدوث الوفاة انتحارا بعد معاينة الغرفة بالطابق السادس التي حطم الجيران بابها عندما استمعوا الى حشرجته ، في هذه المرآه رأى عينيه اليائستين للمرة الأخيرة وذبح الأمل مارا بعنقه بعد أن ذبح في الحياة ألف مرة ، وبهذه السكين الصدئة انتزع ذاته وسلمها راضيا للعدم ، لم يحزن عليه أحد ، وحتى الدمعات التي فرت من عيني لم تكن حزنا عليه بقدر ما كانت غضبا على ما حدث له وخوفا من الصدق في حديثه وتوحدا مع احساسه بكلماته كالنار في حلقه ... في حلقي .

رقم الايداع

.N 977-00-0121-X


Bibliotheca Alexandrina
0694551